

الفصل السادس

وتشدد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيءِ آيَاتِ اللَّهِ يَعْرِ سُلْطٰنِ اَتَنَّهُمْ اِن فِي صُدُورِهِمْ اِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِسٰلِفِيْهِ فَاَسْتَعِذْ بِاللّٰهِ اِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيْرُ ﴿٥٦﴾ [سورة غافر - الآية ٥٦].

١

اجتمعت بطون قريش وتكاتبوا على أن يحصروا محمدا، ومن رفضوا قبول الدية عن قتله في شعب أبي طالب، فلا يغادروها إلا للحج، وأن يمتنعوا عن معاملتهم فلا يزوجهم ولا يتزوجون منهم، ولا يشترتون منهم، ولا يبيعون لهم، ولا يسمحون لأحد - وإن كان من غيرهم - بأن يصلهم، إلى أن يسلموهم محمدا؛ ثم حملوا صحيفتهم التي كتبوها، ووضعوها في بطن الكعبة.

دخل الشعب بنو عبد المطلب، إلا عبد العزى «أبو لهب»، فهو وحده قد خرج عن إجماع قومه، وانحاز إلى أصحاب الصحيفة، ودخل مع بنى عبد المطلب بنو هاشم.

كان أبو طالب في غاية القلق على ابن أخيه، من مكر قريش بعد ما أظهره من عداوة مجنونة، فلم يكن يدع رسول الله ﷺ وحيدا للحظة واحدة، ويعهد إلى الفتية الأشداء من قومه بمرافقته وحراسته، ولشدة حذبه على محمد، كان لا يتركه يبيت في مكان نام فيه ليلته السابقة، بل كان ينيمه كل ليلة في فراش ابن من أبنائه، حتى يطمئن عليه من غدر أعدائه.

كان رسول الله ﷺ يألم غاية الألم لما سببه ويسببه لأهله من شقاء، وكثيرا ما أفصح لعمه أبي طالب بذلك، فكان كلامه يزيد عمه إصرارا، فيقول له في عزم:

- والله لا نسلمك لهم أبدا وإن هلكننا دون ذلك.

وكان ألمه الأكبر الذي يؤرقه ليل نهار، أن أهله على رغم كرم موقفهم منه، لم يرجعوا عن شركهم، وهو من كان يأمل أن يثابوا عند الله لحسن ما أبلوا معه، فنصروه وعزروه، ولكن ها هو ذا أمله يتبدد، لأن ما هم فيه من معاناة وضنك، ليس لله، بل هو من أجل كبريائهم، وانحيازهم لأصلايهم.

لقد سهر رسول الله ﷺ ليالي طوالا يناجى ربه، قائلا:

- اللهم اهد آل محمد إلى الإسلام.

ويظل على توسله، حتى تكاد نفسه تتبدد حسرات، وكيف لا وهو يعلم أن مآلهم إلى النار.

وقد عز على الرحمن الرحيم ما أصبح عليه عبده محمد ﷺ من هم وحزن، فأنزل في هذا الموقف قرآنا، يخفف به عن قلبه: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [سورة القصص - الآية ٥٦].

ولما اشتد الضنك بالقوم، جاءه جبريل يبشره بانقضاء العهد الذى تعاهد عليه المشركون، وأسرع النبي ﷺ إلى عمه، يحمل ما تنزل عليه، قائلا:

- أبشر يا عم، إن صحيفتهم ببطن الكعبة، قد أكلتها الأرضة، ولم يتبق منها إلا اسم الله.

قال أبو طالب:

- أريك أخبرك؟

قال محمد ﷺ:

- نعم.

٢

خرج أبو طالب في جماعة من قومه إلى الجامع، فلما رآه القرشيون، توقعوا أنه قد ضاق بحصارهم، وبامتناعهم عنه، وهو من كان فيهم الكبير المطاع المتصدر لمجالسهم، وأنه بقدمه يسعى لأن يسلمهم ابن أخيه، فأسرعوا يلتفون حوله، وعيونهم تبرق بالأمل. قال أبو طالب:

- يا أبناء عم ألا تعودون إلى حكمة العقل، فتحتكموا ونحتكم معكم متراضين على ما كتبتم في صحيفتكم، وليكن ما تعاهدتم عليه، هو العهد والحكم بيننا وبينكم؟

أجابوه في سعادة المنتصرين:

- واللات والعزى، إنه لعين العقل منك يا أبا طالب.

ثم أوفدوا من أحضر الصحيفة من داخل الكعبة، وحين اطمأن أبو طالب إلى كونهم لم يفضوها، قال:

- إن كان ما كتبتم هو كما هو: سلمتكم ابن أخى، وإن كان الله قد شاء أن يغيره تنقضى صحيفتكم، وأن لكم أن ترجعوا عن مقاطعتكم بانقضاء عهدكم.

بلا تردد وافقوه على ما قال، وتسابقت أصابعهم على فض الصحيفة، وحين كشفوا عما بها، ران صمت عميق على الحاضرين، وألجمت الدهشة ألسنتهم، وبهت الذين كفروا، بعد أن وجدوا الأرضة قد أكلت كلماتها، ولم يتبق مما كتب شيء سوى كلمة: الله.

وتحقق قول رسول الله ﷺ ..

وجن جنون المشركين.

وحين أفاقوا من هول ما رأوا، تصايحوا متراجعين عما ارتضوه، وعاهدوا عليه، وقالوا

لأبى طالب:

- إن هذا إلا سحر ابن أخيك.

وانفضوا من حوله.

وعاد المحصورون ثانية إلى الشعب.

وإزداد القرشيون بغيا على من حصروهم.

عام..

وعام..

وعام..

أعوام ثلاثة بالتمام والكمال.

ورسول الله ﷺ وأهله محصورون في الشعب يعانون من القطيعة وضنك العيش.

فأى قسوة تلك التي قادت منها قلوب أهلك يا مكة؟!!

كيف يرتضى الأهل لبعضهم مثل تلك الجفوة؟!!

ولكنه الابتلاء.

واختبار القدرة على الصبر.

ثم يأتي الله بالفرج.

ويجمع الله أربعة من بطون متفرقة من قريش، وتنزل الرحمة في قلوبهم، وهم: هشام بن عمرو ابن حبيب بن لؤى، وزهير بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي، والمطعم بن عدى بن نوفل، وزمعة بن الأسود بن أسد، ويدور بينهم النقاش حول ما فعلته وما تفعله قريش في أصولها من: حصر وجور واعتداء، وقطع للرحم؛ وانتهى بهم الحديث إلى إجماع على أن ما يحدث ليس فيه من الخلق، ولا من المروءة شيء؛ وأنهم يجب أن يسعوا لنقض تلك الصحيفة الظالم ميثاقها، واتفقوا على أن يجتمعوا في ليلتهم، لحظة اكتمال ندوة قريش حول الكعبة، ويجلس كل منهم في أهله، ثم يعلنون ما أجمعوا عليه.

٣

كان القمر يطل على الكعبة في حياء من وراء ستر السحاب، فلقد كان قمر نهايات الشهر، وقد جلست بطون قريش في الجامع، كل بطن يبيح شئونه أو يلوك باللسان سقط الكلام. فجأة تألق نور القمر، وكأن حنجرة زهير بن أبي أمية بقوة انطلاقها، قد بددت السحب التي كانت تحجب النور، قال زهير في غضب، وهو يرمى ما بيده من طعام:

- يا أهل مكة أين ذهب بكم غضبكم، أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم من أرحامنا هلكي لا يباع لهم ولا يبتاع، والله لا أقعد في مجلسكم هذا، حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. وحين سمع أبو جهل ذلك، ترك مجلسه، وأقبل يصيح في زهير، قائلاً:

- كذبت، والله لا تشق.

فانتفض زعمة من مجلس قومه واقفا، وقال لأبي جهل:

- أنت والله أكذب، فما رضينا بكتابتها حين كتبت.

وهب هشام واقفا، وأعلن تصديقه لزعمة فيما قال، وأعقبه المطعم بن عدى مؤازرا؛ وبهت أبو جهل مما سمع فألقمه الله حجرا فى فمه فما استطاع حديثا، وانكفا راجعا إلى مجلسه، وقام المطعم إلى الكعبة فأخرج الصحيفة، ومزقها.

وخرج المحصورون من الشعب إلى الحياة يمارسونها كسابق عهدهم.

اشتد الأمر على أبى طالب، وزهد الحياة، فكلما فكر فيما فعل به قومه، وهو من كان لهم درءا يدفع عنهم السوء، استكثر وقوعه، وتألم غاية الألم، حتى أصبح لا حديث له إلا عما كان فى الشعب، وما كان من مظلمة قريش، فاعتلت صحته اعتلالا شديدا، وزاد سقمه، ولما أحس باقتراب لحظة الموت، جمع إليه بنى هاشم، وقال لرسول الله ﷺ:

- يا ابن أختى، هؤلاء أشرف قومك، قد جمعتهم ليعطوك وليأخذوا منك، فينتهى ما بينكم من جفوة.

قال رسول الله ﷺ:

- كلمة واحدة لتعطينها، فتملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم.

قال أبو جهل ساخرا:

- نعم، وأبيك، وعشر كلمات إن أردت.

قال الرسول ﷺ:

- تقولون لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه.

صفق الحضور بأيديهم عجا، وقالوا:

- إن هذا لشيء عجاب، أتريد أن تجعل الآلهة إلهها واحدا، ما سمعنا بهذا حتى فى ملة النصارى!!؟

وتداخلت كلمات الحضور وتصايحوا، كل يدلى بدلو، غير مقتنعين بما قال رسول الله ﷺ، ولكن

أبو طالب أشار عليهم بالصمت، فسكتوا تأدبا واحتراما، وخرج صوته بالصدق راجيا، يقول:

- يا بنى هاشم، أطيعوا محمدا وصدقوه، تفلحوا وترشدوا.

انقضوا من حوله ولم يعقبوا، وإن كانوا مجمعين على أن ما قاله أبو طالب، إنما هو من هول سكرات

الموت، أو إشفاقا على ابن أخيه من أن يصير وحيدا، ولا يجد النصرة بعد أن يهلك.

أما محمد ﷺ فلم يأبه بما قالوا، فلقد كانت نفسه تتواثب بالفرحة، بعد أن سمع ما قال عمه

الحبيب، ولما خلا به، ماك عليه يهمس فى رجاء، قائلا:

- يا عم.. أأمرهم بالنصيحة لأنفسهم، وتدعها لنفسك.

قال أبو طالب، وعيناه بالحنان تحتضنان محمدا:

- وما تريد يا ابن أختي؟

قال رسول الله ﷺ في رجاء شديد، وحب أشد:

- أريد أن تقول: لا إله إلا الله، أشهد لك بها عند الله.

قال أبو طالب:

- والله يا ابن أختي لولا مخافة السبة، وأن تظن قريش أنني قلتها خوفا من الموت لأقررت بها عينك، لكنني أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف.

ثم أسلم الروح، ومات.

وحزن الرسول عليه حزنا شديدا..

ولم تمض سوى أيام قليلات..

وماتت خديجة رضوان الله عليها.

وهي، وما أدراكم من هي لرسول الله ﷺ.

فمنذ عرفها كانت نعم الصديقة؛ ونعم الزوجة المخلصة، ونعم الأم الرؤوم، فلقد جعل الله فيها، رضوان الله عليها وسلامه، صفات الزوجة المسلمة: سكنا ومودة ورحمة.

لم يكن أمامه ﷺ ما يقدمه من أجلها، إلا أن يعبر بالفعل الكريم عن عرفانه: فصلى على جثمانها الطاهر، ودعا ربه أن ينزلها فيما بشرت به من كون الفردوس سيكون لها مقاما، ثم دفنها بيديه الكريمتين، وبكاها قلبه، قبل أن تبكيها عيناه.

واشتد حزن رسول الله ﷺ، وعصف به الألم؛ فيها هو ذا يفقد في أيام قليلات، أحب اثنين إلى قلبه: عمه، وزوجه.

واحتسبهما عند الله.

وعاد يمارس الصبر.

ويدعو الناس إلى عبادة ربه.

وهو يعلم أن ربه ما قلاه ولن يقلبه.

٤

أصاب محمدا ﷺ ما أصابه من بلاء، وبدلا من أن تظهر فروسية السلوك من قريش، إذا بها تفعل فعل الجهال، وإذا بها تشتد في قسوتها على رسول الله ﷺ، حتى أصبح الغدر هو الأغلب على فعالها، فأثر رسول الله أن يعتكف في داره، ويتجنب سفاهات القرشيين، وظل على تلك الحال أياما، ولما علم عمه عبد العزى بما صار إليه ابن أخته، أخذته الحمية لصلبه فجاءه، وقال له:

- يا محمد امض لما أردت، وما كنت تصنع في حياة عبد المطلب؛ فواللات لا يصلون إليك حتى أموت.

ثم أعلن ذلك على قريش في مجالسها، فأقبلوا عليه وجلين، وقالوا:

- قلى أبو لهب دين عبد المطلب.

قال أبو لهب:

- ما فارقت دين عبد المطلب، ولكنى أمنع عدوانكم عن ابن أختي.

قالوا منافقين:

- لقد أحسنت وأجملت، ووصلت الرحم.

وما قالوا ما قالوا إلا ممالأة لعبد العزى، فلو انضم آل عبد المطلب لدين ابنهم، لتفرق ریحهم، أما أن تشتد الحمية بهم من أجل غيرتهم على أرحامهم، فهو أمر يمكن علاجه مع الأيام؛ وانفض القوم، والله أعلم بما يضررون.

وعاد رسول الله ﷺ للخروج للدعوة بين الوافدين إلى قريش من جديد، لكن أنصار إبليس أمرضهم ما يرون، فمكروا مكرا كبيرا، ثم ذهبوا إلى عمه أبي لهب، وتبسموا شامتين، ثم خرجت كلماتهم متسائلة، والسب يتناثر من أطراف ألسنتهم:

- هل سمعت ما يقول ابن أخيك، عن مصير من ماتوا من الآباء، ومنهم عبد المطلب؟!.

قال أبو لهب:

- لا.

تناثر السم يدمر كل ما هو طيب، ويفسد استمرارية الود، قالوا:

- يقول إنه مثله مثل من ماتوا على ملته.

قال أبو لهب:

- وماذا يقول عن مصيرهم؟!.

عاد الخيث القاتل يغلف كلماتهم بالسم، وقالوا:

- هو ابن أخيك، فاذهب إليه واسأله.

وجاءه رد السماء على لسان لا ينطق عن الهوى، ولا يكذب، ولا يمالئ، بل هي قولة الحق أجابه

بها محمد ﷺ ردا على سؤاله:

- من مات على ما مات عليه عبد المطلب دخل النار.

اشتعل أبو لهب وصار نارا مدمرة تعلن عداها، قال:

- والله ما أنا لك منذ اللحظة إلا عدو أبدا، وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار.

كنت يا حبيبي تعلم أن هذا هو رد الفعل لقولك. فأنت تعرف أن عمك عبد العزى عبد لما عبد

الآباء.. ولكنك لم تحد عن الحق، وكيف تحيد، وتعمل عمل أهل الدنيا فتعكر، وترائي طلبا لعون عمك

ونصرته؟!.. وأنت تعلم أن النصر من عند الله، وأن الأمر جميعه بيد الله سبحانه وتعالى، وليس لعبد

العزى، ولا حتى لقريش وأهل الدنيا لو اجتمعوا، فإنهم لن يضرؤك بشيء، إلا ما كتب الله تعالى لك.

واهتبلت قريش الموقف اهتبالا، فعادت إلى سابق عهدا مع رسول الله وصحبه من جور واعتداء.

مع مرور الأيام، وجد رسول الله ﷺ أنه لا خير في قريش. وفي ليلة شديدة الظلمة، في مثل ظلم قريش، وفي غفلة من عيون أهلها، تسلل رسول الله ﷺ خارجا من مكة ومعه زيد بن حارثة قاصدا: الطائف، عسى إن لم تكن قريته الأولى قد استجابت لدعوته أن تستجيب القرية الثانية، ولعل الأنسباء يكونون أكثر حذبا عليه من الأصلاب.

كان ﷺ كلما مر في طريقه بقبيلة من القبائل يميل إليها؛ ويدعو أهلها إلى الإسلام، فلعل الله هاديهم، فلم يجد منهم إلا النفور والصد عن دين الله، ولم يحبط موقفهم أمله في أن يتحقق وعد الله، وأن يدخل أهل المقصد من الرحلة الإسلام. كانت الطائف كمكة في تكوينها القبلي، وكان كبراؤها إخوة ثلاثة هم عبد ياليل، ومسعود، وحبیب: أبناء عمرو بن نفيل الثقفي.

وبعد أن قطع رسول الله ﷺ أكثر من تسعين ألفا من الأمتار سائرا على قدميه، وصل إلى الطائف، واتجه إلى حيث مجلس الإخوة، وعرض عليهم أن ينصروه على قومه، بدخولهم في دين الله، فقال أولهم:

— إننى لأمرق ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك.

وقال الثانى متعاطفا:

— أما وجد الله أحدا غيرك يرسله؟.

وقال الثالث وكان مؤمنا:

— والله لا أكلمك أبدا، إن كنت رسولا لأنت أعظم من أن أرد عليك الكلام، وإن كنت تكذب على الله فما ينبغي لى أن أكلمك.

ثم أغروا غلمانهم وحرصوهم على أن يقذفوا رسول الله بالحجارة، وهو يأخذ طريقه خارجا من قريتهم، فلم يراعوا أبسط الأعراف فى معاملة الضيف، فما بالكم وقد كان رسول الله ﷺ مستجيرا بهم؟.

خرج الصبية إلى الطرقات يتصايحون، ويلاحقون خطى رسول الله ﷺ، ويقذفون قدميه بالحصى والأحجار، فما من مرة رفع قدما أو حطها، إلا ورميت بحجر، وزيد يذب الصبية فلا يستجيبون، ولا يرتدعون، فينفطر قلبه خوفا على الحبيب، ولا يجد من فداء غير أن يتلقى عنه الحجارة بجسمه، وإن كانت الروح منه وثابة سبابة تبحث عن مزيد من القدرة على الحماية، فلم يشعر زيد برأسه التى شجيت، فلقد كان ألم نفسه على الحبيب الذى تخضبت قدماه بالدم مما نالهما من أذى: أشد وأعظم من جرح رأسه.

وهكذا كان الأنسباء أدنى أخلاقا من قريش، فلقد تدنوا فى سلوكهم بعد أن نزع الشيطان فى قلوبهم، وأشعل نيران الغيرة والكراهية فى أبدانهم: فكيف لا تكون النبوة فيهم هم، وتكون فى يتيم من مكة، ليس له من الملك، أو السلطان شىء؟.

وفعلهم هذا لا يثير فينا عجبا أو استنكارا، فهو سلوك من استعبدهم إبليس؟! .
فكيف لا يكون فعلهم فعلا قبيحا كمصدره؟! .

وكيف لا يناصب إبليس محمدا ﷺ العداوة، وقد استشاط غضبا وكرها، بعد أن رأى ما رأى من مثالية سلوك من دخلوا في دين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وبعد أن تأكد من اعتصامهم بالله، وامتناعهم عليه، وإبليس يرى فيما يحدث خطرا محققا بسلطانه، فهذه الدعوة إيذان بزوال ملكه، وهلاك قومه، وفشله فيما عاهد الله عليه من إفساد للبشر؟.

٦

بعدت الخطي بمحمد وزيد، عن سبيل الشيطان وأنصاره، وهذا هوس الصبية، وتباعد خطرهم، وجلس رسول الله ﷺ إلى سور بستان به كرامة، ثم خر ساجدا لله في خشوع، ثم استقام ورفع يديه إلى صاحب الأمر في زراعة وقنوت، وانساب الدمع على الخدين حبات لؤلؤ، وخرج صوته ﷺ خريز جدول ماء طهور، قائلا:

اللهم انى أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلنى: إلى عبد يتجهمنى، أم إلى عدو ملكته أمرى؟.. إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بى غضبك، أو يحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.

وتتلقف أذنا زيد صوت الخريز، فيدهش غاية الدهشة، ويعجب أشد العجب، فلقد كان ينتظر من الحبيب أن يدعو ربه ليهلك من اعتدوا عليه، وآذوه، وقلوه؛ ولكنك هكذا دائما يا حبيبي يا محمد...: تعفو وتصفح، ولا تملك أن تقسو أو تكره.

ولماذا العجب، وأنت من قال فيك الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

[سورة الأنبياء - الآية ١٠٧].

فاض يزيد وجد المحب على المحبوب، فنفسه تشعر بالعجز عن القصاص ممن أساء واعتدى، كما وأنه لا يملك الافتداء، فكيف ينوب بدنه عن بدن الحبيب، ولن يتحقق هذا إلا بالامتزاج، وهذا محال؟.

ويبتعد زيد ببذنه عن محمد ﷺ خطوات، وكأنه يرض على جسده العاجز أن يكون مجاورا لجسد الحبيب، طالما هو ليس أهل لهذا الحب؟! .

ويتكوم زيد على نفسه، وينفض جسده من شدة البكاء، وهو يكاد ينفطر حسرات على ضعفه وعجزه، وغیظا من حال بشر قساة يصبون قسوتهم على من جاءهم بالرحمة من عند الله، ويبيذل عمره لى تشملهم ليسعدوا ويفلحوا!! .

ويغد جبريل على النبي ﷺ يبلغه أن ربه قد سمع شكواه، وأن الله قد أمر ملك الجبال أن يكون منفذا لما يأمره به، ويظهر ملك الجبال طاعته، قائلا:

- إذا شئت يا رسول الله أطبقت الجبال عليهم فتمحوهم، وتمحو آثارهم من على وجه الأرض.
ولكن الحبيب يرتعد من هول ما سيصيب القوم، فيقول في رجاء:
- كلا، لا تفعل.

ثم يتجه في ضراعة إلى الله تعالى، قائلا:

- اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، فلعلك بقدرتك يا رب مخرج من أصلابهم مسلمين.
وتلمح عين زيد غلاما يقبل حاملا بين يديه شيئا لا تبين تفاصيله، فتتحفز حواسه للدفاع عن الحبيب، وحين يقترب الغلام تتضح الرؤية، ويبين ما يحمله، فإذا به طبق عليه عنقود عنب، أرسله صاحبا البستان اللذين جلسا إلى حائطه، فقد رق قلباهما لما رأياه قد حاق بالنبي، وينحنى الغلام، ويضع الطبق بين يدي الحبيب، فيمد محمد يده فيتناول بين أصابعه حبات قليلات من العنب، ثم يعطى العنقود لزيد، فيتناوله منه راغبا عنه، وعيناه ترقبان ما سيفعله الحبيب.

يرفع الحبيب ﷺ حبات العنب إلى فمه، ويقول:
- بسم الله.

ثم يضع الحبات في فمه، ويتساءل الغلام دهشا مما سمع:

- والله هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد!!

ويسأله الحبيب ﷺ:

- ما اسم الغلام، ومن أي بلد، وما دينك؟

قال الغلام:

- اسمي عداس، ومن نينوى بالشام، وأما ديني فالنصرانية.

قال الحبيب ﷺ:

- أنت من بلد الصالح «يونس بن متى».

تساءل الغلام في دهشة:

- وماذا تعرف عن يونس؟!

قال الحبيب ﷺ:

- هو أخي فأنا نبي مثله، بعثني الله داعيا إلى الإسلام.

قال الغلام في مودة وهو يجلس متقربا إلى رسول الله:

- حلا أسمعنتي بعضا مما تدعو الناس إليه؟

أسمعه النبي ﷺ بعضا من القرآن، وأعلمه مبادئ الإسلام، وحين انتهى من حديثه، انكب الغلام يقبل رأس النبي ويديه في خشوع، وحين رأى صاحبا البستان ما فعل غلامهما، أخذتهما

الدهشة، وانتظرا عودته إليهما فى ترقب، وكلما مرت بهما الدقائق، ازدادا قلقا، فما إن أقبل، حتى بادراه بالسؤال عن سبب ذلك التبجيل الذى أبداه لغريب كان الصبية يكونه بالمجنون، ويرمونه بالحجارة، قال عداس فى عجب:

- محال أن يكون بالرجل شىء من ذلك.

ثم أضاف مؤكدا فى ثقة:

- لقد قال لى كلاما لا يعرفه إلا نبي.

فأصابت الرجلين الرعدة من قوله، وأخذتهما الغيرة مما قال، فإنه لشىء كريبه إلى نفسيهما، أن يكون هذا الاجتباء من الله، لغريب بسيط المنظر، جوال بين البلاد مما يشى بأنه لا مال عنده، ولا سلطان؛ قالوا ينصحان غلامهما فى ترهيب وترغيب:

- ويحك يا عداس، لا تخدعك كلماته، فدينك أحسن من دينه.

ولكن عداس لم يعرفهما التفاتا، ولا رد على كلامهما، فإن ما كان فيه من نعمة اللحظة الإيمانية،

أسمى بكثير مما كانا يدعيان كذبا، ويتطاولان به جهلا.

٧

انصرف رسول الله ﷺ عائدا إلى قريته يتبعه زيد، وقد أطبق الظلام على الطريق، وفى أحد الأودية فرش رسول الله برده واتجه إلى الله تعالى يصلى، ويرتل القرآن ترتيلا، فإذا بصوت نشيج وعويل شديدين يسمعان فى ترديد قوى بين جنبات الوادى، وثار العجب بزيد مما يسمع، ولكنه لم ينطق بكلمة، فقد أخذته رعدة شديدة.

وبعد أن انتهى رسول الله ﷺ من عبادته، جاءه جبريل وتلا عليه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصُرُوهُ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّندِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَّا طَرِيقٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّن عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٣﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي سَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

[سورة الأحقاف - الآيات ٢٩ : ٣٢].

ولما أخبر النبي زيدا بما جاءه من قرآن، عجب زيد غاية العجب: أن يكون هذا هو تأثير القرآن فى نفر من الجن، ولا يحدث نفس الأثر عند الإنس.

ألا ما أبأسك، وما أتعسك يا أيها الإنسان.

حين أضاءت الأرض بنور ربها.

كان الحبيب ﷺ قد أصبح على مشارف مكة، وتحت سفح جبل حراء توقف، فى نفس الموضع

الذى كان يصعد منه إلى الغار متعبدا وقانتا يطلب العلم من الله؛ فما كان مستطيعا دخول قريته إلا مستجيرا بحمى أحد كبرائها، بعد أن قلاه عمه أبو لهب.

أرسل النبي ﷺ زيدا إلى الأخنس بن شريق مستجيرا، وجاءه الرد مؤدبا مؤداه أن الأخنس مستجير بأهل القرية فهو ليس قرشيا، بل هو وافد على مكة مهاجر من ثقيف، والمستجير لا يجير. فأرسله إلى سهيل بن عمرو بن عبد شمس، فردته معتذرا عن إجابة الرسول إلى طلبه. قال النبي ﷺ:

- يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا، وإن الله ناصر نبيه.
ثم أرسله إلى مطعم بن عدي، فأقبل إلى المسجد في أبنائه وقد تسلحوا، وقام مطعم على راحلته فنادى:

- يا معشر قريش، إنى قد أجزت محمدا فلا يؤذه أحد.
ودخل النبي مكة في جوار مطعم بن عدي؛ فطاف بالكعبة، وأولاد مطعم يتحلقون بها مظهرين تأمبهم للقتال؛ وحين أقبل أبو سفيان ورأى ما يحدث، أقبل على مطعم قلقا من أن يكون قد دخل في دين محمد، وسأله:
- أمجير أم تابع؟!
قال مطعم:
- بل مجير.

واطمأنت نفس أبي سفيان، وقال:
- إذن لا ترد لك جوارا، وقد أجزنا من أجزت.
وأتى رسول الله ﷺ طوافه، وعاد مع زيد إلى داره.

٨

رأى رسول الله ﷺ أن يوجه جهده إلى دعوة من يفدون إلى مكة حاجين أو للتجارة، فيعرض عليهم أمره، وانتبه كفار قريش إلى ما يسلك رسول الله، فكانوا لا يكفون عن ترقب الوفود على أبواب مكة، ويحذرونهم من الدين الجديد، ويتفننون في إطلاق النعوت الكاذبة على النبي حتى ينفروهم منه. وكان عمه أبو لهب أشدهم مجافاة لابن أخيه، فلقد ظل يلاحقه أينما ذهب بين الوافدين: يسيئ إليه، ويتهمه بأنه مجنون لا يدري ماذا يقول، وأنه يفرق بين الرجل وزوجه، وبين الأب وابنه، ويفسد على قومه حياتهم، لذلك كثيرا ما حاجت الوفود النبي بكلام عمه قائلين:
- قوم الرجل أعلم به، ولا ترى أن يصلحنا رجل قد أفسد قومه.

وحين وفد الطفيل بن عمرو الدوسى، وهو من أنبغ شعراء العرب، سارع أتراه من القرشيين إلى تحذيره من الاستماع أو الاقتراب من مجلس محمد بالكعبة، وكان تحذيرهم هو ما حفز نفس الشاعر

التواقة إلى الاكتشاف، لأن تتوثب رغبة في معرفة الحقيقة، وتحايل الطفيل على محاولاتهم، بأن قال لهم يظمنهم:

- آتوني بقطن أضعه في أذني حتى لا أسمع.

ثم تحين الفرصة للاقتراب من مجلس النبي في الحجر ليسمعه، فأخذ بروعة ما سمع من القرآن، ثم تحايل المرة بعد المرة للانفراد بالنبي بعيدا عن عيون قريش، حتى شاء الله أن يشرح قلبه للإسلام، فجلس إلى النبي، وتلا النبي عليه القرآن، فما قام من مجلسه إلا وقد أسلم، بل تاقت نفسه الطيبة لأن يسلم قومه، فقال للرسول راجيا:

- يا رسول الله إن قومي قد غلبهم حب الزنا، فأدع الله أن يتوب عليهم ويهديهم للإسلام.

فقال رسول الله ﷺ:

- اللهم اهد دوسا.

وغادر الطفيل مكة إلى أهله مسلما، وما إن استمعت زوجته وسمع أبوه ما حمل معه من قرآن حتى أسلما، ثم دخل قومه بعد ذلك في الإسلام.

على رغم سخافات أبي لهب، ظل النبي يقصد تجمعات الوافدين، يدعوهم إلى الله ورسوله، ويبين لهم ما بعث من أجله موجزا ومبسطا يقول ﷺ:

- أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني، وتمنعوني، حتى أبين عما بعثني الله به.

فكان يجد من أغلبهم الجفوة، ويجد من البعض القبول، ومن البعض الآخر التردد، مثل ما حدث حين ذهب إلى خيام بنى عامر بن صعصعة، فلقد عقب بحيرة بن فراس على دعوته قائلا لأهله:

- والله إنني لو أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب.

ثم التفت إلى رسول الله ﷺ قائلا:

- أرايت إن نحن تابعنك على رأيك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أكون لنا الأمر من بعدك؟.

قال الصادق الأمين:

- الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء.

قال بحيرة:

- أو نهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا ظهرت كان الأمر لغيرنا، والله لا حاجة لنا بأمرك.

وحين عادوا إلى ديارهم، وقصوا ما حدث لشيخهم، قال آسفا:

يا بنى عامر هل لها من تلاف، والذي نفسى بيده ما يقولها إلا واحد من ولد إسماعيل، وإنها الحق، فأين كان رأيكم عنه؟!.

قدم سويد بن صامت من بنى عمرو بن عوف من طيبة، إلى مكة معتمرا، وعرض عليه رسول الله الإسلام، فقال له:

- فلعل الذى معك، مثل الذى معى.

قال الرسول ﷺ:

- وما الذى معك؟

قال سويد:

- معى وصايا لقمان.

قال رسول الله ﷺ:

- اعرضها على.

فلما عرضها، قال رسول الله ﷺ:

- إن هذا لكلام حسن، معى أفضل منه، قرآن أنزله الله على هدى ونورا.

وتلا عليه القرآن، وسويد منصت بكل جوارحه، فلما انتهى قال سويد:

- والله إن هذا لقول حسن.

ثم عاد سويد إلى قومه بطيبة، ولكن الخزرج قتلوه، وإن أهله ليقولون إنه مات على الإسلام.

سمع رسول الله ﷺ بمقدم وفد من بنى عبد الأشهل، وهم من يهود طيبة، يطلبون الحلف من قريش

على قومهم من الخزرج، فذهب إليهم، وقال لهم:

- هل لكم إلى خير مما جئتم له؟

قالوا:

-- وما ذاك؟

فعرّفهم رسول الله ﷺ بدعوته، ثم تلا عليهم القرآن، وحين انتهى قال إياس بن معاذ:

- أى قوم، هذا والله خير مما جئنا له.

وينحنى أبو الحيسر أنس بن رافع، فيعترف التراب من الأرض ويرمى به وجه إياس قائلا:

- دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا.

فصمت إياس، وانصرف عنهم النبي.

ولكن نفس إياس لم تنصرف عن الإسلام، فلقد ظل على الإسلام حتى مات فى عامه ذاك.

ولما عرض رسول الله ﷺ أمره فى موسم الحج، على ثقيف وهم من أهل الطائف وكان معه أبو بكر

وعلى بن أبى طالب، بدأ أبو بكر رضى الله عنه الحديث متسائلا:

- من القوم؟.

أجابه محدثهم وكان اسمه مقروف:

- من شيبان بن ثعلبة.

قال أبو بكر رضى الله عنه:

- كيف العدد فيكم؟.

قال مقروف:

- إنا لنزيد على الألف. ولن تغلب الألف قلة.

قال:

- وكيف المنعة فيكم؟.

قال مقروف:

- علينا الجهد، ولكل قوم طاقة.

قال أبو بكر رضى الله عنه:

- وكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟.

قال:

- إنا لأشد لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح.

ثم استطرد مقروف متسانلاً:

- لعلك أخو قريش؟.

فأشار أبو بكر إلى حيث وقف رسول الله ﷺ وقال:

- إن أخا قريش هو ذا.

قال مقروف:

- بلغنا أنه يذكر شيئاً، فإلام يدعوا؟.

فتقدم النبي ﷺ وقال:

- أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأنى رسول الله، وأن تأوونى، وأن

تنصرونى، حتى أبلغ رسالة ربي، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله، وكذبت رسوله، واستغنت

بالباطل عن الحق، والله هو الغنى الحميد.

قال مقروف:

- وإلام يدعوا دينك يا أخا قريش؟.

وقرأ النبي ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنبَأْ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ عَلَىٰ كُفْرِكُمْ بِهِ سَيِّئًا وَيَالِ الَّذِينَ

إِخْسَنَّا وَلَا نَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَأْتُمْ مَخْنُ نَرْزُقْكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ

مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ۗ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّوْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾
[سورة الأنعام - الآية ١٥١].

قال مقروف:

- ما هذا من كلام أهل الأرض، وإلام تدعو أيضا؟.

فتلا النبي ﷺ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يُعْظِمُ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا
الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة
النحل - الآيات ٩٠ : ٩١].

قال مقروف وقد تهلل وجهه:

- دعوت والله إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد افتري من كذبك، وظاهر عليك، وهذا
هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا.

قال هانئ:

- أرى أن ترك ديننا إلى دينك بمجلس جلسته إلينا، كان قلة نظر في العواقب، والزلة مع العجلة،
ووراءنا قوم نكره أن نقرر بدونهم عقدا، ولكن نرجع وننظر، ومنتظر، وهذا المثني بن حارثة شيخنا
وصاحب حربنا.

وتحدث المثني فقال:

- لقد سمعنا مقاتك يا أبا قريش، والجواب ما ذكر هانئ بن قبيصة، وإن أردت أن نؤويك وننصرك
فعلنا، ولكننا نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ألا نحدث حدثا، ولا نأوى محدثا، وهذا الأمر الذي
تدعوننا إليه نكرهه الملوك.

قال رسول الله ﷺ:

- ما أسأتم إذ أوضحتكم الصدق، وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من أحاط به من جميع نواحيه،
أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلا ويورثكم الله أرضهم، وديارهم، وأموالهم، تسبحون الله وتقدسونه.

ثم تلا رسول الله ﷺ قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا
إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اللَّهَ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾

[سورة الأحزاب - الآيات ٤٥ : ٤٧].

وتركهم رسول الله ﷺ على رجاء أن يهديهم الله، إعمالا لمنهجه الذي ينتهج للدعوة، ويبين في
قوله ﷺ:

- لا أكره أحدا على شيء، من رضى الذى أدعو إليه فذاك، ومن كرهه لم أكرهه، وإنما أريد منعى
من القتل حتى أبلغ رسالة ربي.

ولقد كان هذا الاستقبال الطيب من ثقيف حافزا لرسول الله ﷺ على متابعة باقى الوفود بالدعوة، فتخير جمعا ممن وفدوا من طيبة، واتجه إليهم ومهد لحديثه سائلا:

- من القوم؟.

قالوا:

- نفر من الخزرج.

قال ﷺ:

- موالى اليهود؟.

قالوا:

- نعم.

قال ﷺ:

- أفلا تجلسون حتى أكلمكم؟.

قالوا:

- بلى.

فدعاهم إلى الله، و تلا عليهم القرآن، فلما انتهى قالوا:

- لقد توعدنا اليهود بنبي يبعث، فيقاتلونا به، فيهزمونا ببركته ويقتلونا تقتيلا، فلا نجعل أحدا يسبقنا إليك، ونحن نصدقك، ونقبل منك دينك، ولكننا قد تركنا قومنا، وليس مثلهم قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله أن يجمعهم بك، وستنقدم عليهم حين عودتنا فندعوهم إلى ما أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه، فلا رجل أعز منك.

فلما عادوا إلى طيبة وقد أسلموا، دعوا قبائلهم إلى الإسلام فأجابوهم إليه، ولم تبق دار من دور الخزرج، أو الأوس بطيبة إلا وفيها من دخل الإسلام.

وفى العام التالى، وفد إلى مكة اثنا عشر رجلا من الأوس والخزرج فبايعوا رسول الله ﷺ، فكانت بيعة العقبة الأولى.

وقد قامت أشرطها على أن: لا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصى رسول الله فى معروف.

قال رسول الله ﷺ:

- فإن وفيتم فلکم الجنة، وإن غشيتم شيئا من ذلك فأخذتم بحده فى الدنيا فهو كفارة، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمرکم إلى الله: إن شاء عذبکم، وإن شاء غفر لکم.

وحين انتهى موسم الحج، طلبوا من رسول الله ﷺ أن يرسل معهم إلى طيبة، من يعلمهم ويعلم قومهم أمور دينهم الجديد، فبعث معهم مصعب بن عمير.

وشاء الله أن يدخل الإسلام على يديه كبار قادة الأوس والخزرج.